أن عدّل هذه التعدية فى كلمة نشرناها فى (أبولو) فلما أعدنا نشرها فى الديوان رجعنا فعديناها بالحرف ـ لأن ذلك فى أنفسنا أدلّ وأوضح ، ونحن نعطى أنفسنا هذه الحرية فى الأداء .

أما بقية المآخذ فقد عرضها حضرة الباحث ثم دافع عنها ، فلم يبق ما يوجب التعقيب ، فاليه تحيتى وثنائى ؟

زكى مبارك

التصوير فى الشعر القديم

كثيراً ما يعنى الشعراء الفرنسيون فى قصائدهم بتقديم الصورة المحسوسة لما يتحدثون عنه .

فاذا تحدث اليك لا مارتين فى قصيدته (الوحدة) قدم اليك صورة فتوغرافية لهذا المكان الذى كان يلجأ اليه ، وهذه السنديانة القديمة التى كان يجد الراحة فى ظلها فوق جبله العالى ، وتحت أقدامه السهل المنبسط انبساط المطمئن الوادع : وعلى بعد منه قليل تستطيع أن تبصر النهر فى إزباده والتوائه تنعكس عليه الاشعة التى توشك أن تموت فتسمح لليل بالهبوط ، وللنجم بالاشراق . فانت فى هذه الصورة الحسية تكاد تثق بأنك معه فى خلوته ، تشرف على ما يشرف ، وتحلق معه فى الآفاق التى يصغى بك اليها .

واذا تحدث اليك ألفرد دى فيجنى فى قصيدته (موت الذئب) أحسست بالانقباض يشيع فى نفسك ، والأسى يغتصب منك حسك ، كأنك أنت المسؤول عن موت هذا الذئب ! تشهد احتضاره ويوجعك أنينه ، تنظر فى عينيه بريق الأمل

الخافت ، والنجدة الصارخة . تكاد لا تملك نفسك إن استطعت أن تقدم معونة الى هذه الروح المحتضرة ، التى تنسيك الفرق بينك وبينها .

ولكن لا ننس أن هذه هى الروح التى استولت على الشاعر فى شتى كتاباته ، وانه كان متشائماً فى الدرجة الأولى .

هذا هو المظهر العام الذى يسود على كثير من الشعر الفرنسى ، جعلناه مقدمة لكلمتنا التى نود كتابتها عن هذا التصوير فى الشعر العربى القديم ، ونقول القديم متعمدين قاصدين الى معناها ، تاركين الشعر الحديث ، لأن التصوير فيه يقترن اقتراناً لازماً بأبى شادى فهو الوحيد الذى كتب فيه ، فأجاد وأبدع ، فالكلام عنه كلام عن أبى شادى فلنتركه لفرصة أخرى .

ولا نودّ أن نقارن بين الشعر الفرنسى على لسان لامرتين ، وألفرد دى فيجنى وكلاهما فى القرن التاسع عشر ، وبين الشعر العربى القديم الذى تطاولت عليه العصر فالمقارنة خاطئة ، كما يقول استاذنا طه حسين ردّ الله غربته .

ولكننا نود أن نعرض الى التصوير كما تناوله الشعراء العرب فى شعرهم ، لا يهمنا أطالت القصيدة أم قصرت ، بل نتناول الصورة التى قدمها الشاعر ، ونتفهم الى أية درجة تناولتها شاعريته ، وقوته على الاخراج والتصوير ، سواء أكانت فى بيت واحد أم فى قصيدة طويلة .

ولنبدأ بشاعر قديم ، قد لا يعرفه كثير من الناس ، هو جران العوّد النميرىّ

ولا يطمع منى القارىء فى ان أقدم له جران العود هذا ، ولا أن أدله على مولده ولا مكان وفاته وتاريخها ، فليبحث به من يحب ا غاية ما أحب أن أعرّف القارىء به ـ إن كان لم يعرف ـ أن لهذا الشاعر ديواناً صغيراً مطبوعاً فى دار الكتب المصرية .

ولنعد الى ما نود الكتابة فيه .

قدم الينا الشاعر صورة حية ناطقة من حياته فى بيته لا يبعد أن نجدها فى كثير من بيوتنا فى وقتنا هذا ، فهو فصل من الحياة الواقعية تستطيع أن تشاهده و أن تسمع به .

حياة رجل تزوج أولا من بدوية ساذجة لم يطب له العيش معها . فنزعت نفسه الى الحضريات ، فوقع بصره على امرأة بارزة الصدر ، تتمشط وتدهن ، سوداء الشعر

بادية الزينة والحسن ، خلبه حسنها وامتلكت عليه تفكيره ، واندفع فى هواه اندفاع البدوى لأولى الحضريات اللاتى يصادفنه ، ودفعه هواه الى أن يبذل لها ماله وما تمتلك يداه وأن يتزلف اليها وأهلها ما وسعت الزلفى ، حتى انزلقت به الأيام الى ليلة البناء بها وفيها يتكشف الحال عن ليلة سوداء ، بشّر بها الغراب والعقاب ، وعلا صريخهما وطالت حركتهما فى الجو ، كأنما يكتشفان للزوج المسكين موقع هذه الحضرية من الجمال والحسن أو مكان الجمال والحسن منها !

لقد انتهى كل شىء ودخل بها ، وعرف ما لم يكن يعرف : عرف شعرها العارية الذى فوق قفاها الكثيف كحيات البطائح سوداء متعرجة ، لا حياة فيه ولا بهاء له . عرف منها ساقيها الكريهين ودقة عظامها ، فاختار الشاعر أن يكونا فى التصوير خطافين نزع لحاؤهما ، وبدأ يظهر عليهما التحول فى طول كريه ممقوت ، فهى إن كان لا بدّ أن يكون لها شبه فى الأشياء ، فلا أشبه منها بذكر النعام فى صلابة الساق ودقته وفقر العجز وجفافه !

ثار ثائر الشاعر ، وطارت الامنية من يده كما طار المال الى بيت أبيها وخسر فى الصفقتين ، ولكن ما بقى كان أشدّ وأنكى .

وهنا يحسن أن نثبت شعر الشاعر ليشاركنا القارىء فى النظر فيعرف الصورة التى أراد الشاعر أن يثبتها :

ألا لا يغرَّنّ امرأً نوفليةٌ ... على الرأس بعدى أو ترائبُ وُضَّحُ

ولا فاحمٌ يُسقى الدهانَ كأنه ... أساودُ يزهاها لعينيك أبطحُ

وأذنابُ خيلٍ عُلِّقت فى عقيصةٍ ... ترى قُرطَها من تحتها يتطوّحُ

فان الفتى المغرورَ يعطى تِلادَه ... ويعطى الثنامن ماله ثم يُفضَحُ !

ونحن نشكر الشاعر على هذا النصح الخالص فهو يقدمه فى مرارة التجربة التى نرجو أن يستفيد منها جمهرة الناس .

يخلص الشاعر من نصيحته هذه ووصفه القوى المختصر الى أن يذكر لنا أنه خسر خسراناً مبيناً فى صفقته هذه ، لأنه أصبح :

... يغدو بِمسحاجٍ كأن عظامَها ... مَحاجنُ أغراها اللحاءَ المشبَّحُ

حتى :

اذا ابتزّ عنها الدرعُ قيل : مطرّدٌ أحصُّ الذُّنابَى والذراعين أرسَحُ

حكم الشاعر أهلها فى ماله يصيبون منه ما حلت لهم الاصابة ، فلقد كان يظن أنه ابتاعها منهم . ولكن (ما كلُّ مبتاع من الناس يربح !)

زلّ الشاعر فى زواجه هذا فندم عليه ، وكيف الخلاص من ضرتين :

هما الغول والسِّعلاةُ حلقىَ منهما مخدَّشُ ما بين التراقى مجرَّحُ !

كيف الخلاص من هذا البيت الذى امتلأ بأهله وصبيانه ؟ أيفرّ الى حيث ينجو (بحلقه) ويترك لهم داره وأهله ، ويبتغى معاشاً آخر؟!

أترك صبيانى وأهلى وأبتغى معاشاً سواهم؟ أم أقرُّ فأُذبَحُ ؟!

لقد صانع وجامل ما استطاع اليها سبيلا ، وتقرّب بدموعه فلم تشفع له الدموع خطأ ، واحتمل العذاب عاماً كاملا فلم يزدادا الا اضراراً وعناداً .

عرض عليهما أن يذهبا بنصف ماله إن كانت تنفع هذه الحيلة فى البينونة بينهما:

خذا نصفَ مالى واتركا لىَ نصفه وبينا بذمٍّ فالتعزّبُ أروحُ

فيا ربَّ قد صانعتُ عاماً مجرَّماً وخادعتَ حتى كادت العينُ تُصمَحُ

لم تنفع الحيلة ، ولابد أن يأخذ الشاعر كل نصيبه فى هذا البيت الجهنمى ، ولا بد من (علقة) رتيبة ، يتناولها كل صباح جزاءً ووفاقاً لأن الشاعر قليل الذوق كشاف عيوب .

فاذا ما اعتركا أسرعت الى ناصيته ، ولعلها كانت شعيرات طويلات كعادة العرب تستطيع أن تصل اليه منها ولا قيمة عندها لثوب العرس الذى لا يزال ينضح منه الطيب:

لقد عالجتنى بالنّصاء وبيتُها جديد ، ومن أثوابها المسك ينفحُ

فأسرع هو الى خمارها فانتزعه من فوق رأسها فبانت (القرعة) الكبرى !

اذا ما انتصَينا فانتزعت خمارَها بدا كاهلٌ منها ورأس صَمحمحُ

فما أسرع ما تترك ناصية صاحبنا الشاعر لتوارى هذه الرأس النكراء ، فيستطيع أن ينجو قليلا ، ولكنها سرعان ما تدور وراءه يقطعان البيت سباقاً وركلا ، وعينه لا تحيد عن الهراوة وقياس البعد بينه وبينها :

تُداوِرنى فى البحث حتى تكبَّنى ... عِينىَ من نحو الهِراوةِ تَلمحُ !

اعتاد شاعرنا منها ذلك ، وتعلم كيف يموت كل يوم ، وتعوَّد عند الموت أن يجرى الماء جراً فيجد فيه طريقاً جديداً الى الحياة، فما يكاد يبصر حتى يجد الناس جميعاً ذاهلين واجمين . فانظر اليه يقول :

وقد علمتنى الوقذَ ثم تجرُّنى ... الى الماء مغشياً علىَّ أرنِّحُ

ولم أر كالموقوذ تُرجَى حياته ... إذا لم يرعه الماءُ ساعةَ يَنضَحُ .

أقول لنفسى: أين كنتِ ؟! وقد أرى ... رجالاً قياماً ، والنساء تُنسِّحُ ؟ !

وهنا كعادته يقدم لنا نتيجة اختباره فنشكره ، ونلفت اليه المتزوجين !

لقد اشتقنا الى أن نعرف الصورة التى كانت عليها هذه المرأة القاسية والى الطريقة التى كانت تتبعها مع شاعرنا المسكين .

فانظر اليه يصفها وقد وضعت الصبر فى عينيها ومن فوقهما العصابة تشملهما مع رأسها وتغدو اليه مبكرة بكور الذئب حيث البوم لا يزال يضبح فى الأمكنة المجاورة:

تُصبِّرُ عينيها ، وتعصب رأسَها ... وتغدو غدوَّ الذئب والبومُ يضبحُ

ولكن رأسها ، أين هو من تصوير الشاعر ؟ فانظر اليه ينهال عليها وصفاً وايضاحاً ليعطينا الصورة الصادقة لبعض ما نجد فى رؤوس النساء من شعر قصير منكش مفلفل أو هائج منتفش لا يحرثه المشط :

ترى رأسَها فى كل مَبدًى ومَحضرٍ ... شعاليلَ لم يُمشط ، ولا هو يُسْرَحُ

وإن سرحتْه كان مثل عقاربٍ ... تشول بأذنابٍ قصارٍ وتَرمَحُ

هذه هى رأسها تكاد تبصرها أمامك فوق قامة شوهاء . أما حركتها فى الايقاع بالشاعر المصاب وسرعتها فى اللحاق به وجبهتها التى ترشح من الغيظ فيدلّ عليها قوله :

تَخطَّى الىّ الحاجزين مُدِلَّةً ... يكاد الحصى من وطئها يترضَّحُ

كِناز عِفرناةً ، اذا لحقتْ به ... هوى حيث تُهويه العصا يتطوّحُ

وانظر الى الدقة فى قوله (تخطى) حيث تكاد تجد الحركة الدائمة ، والنظر الذى لا يغيب : فهى على ما أراد الشاعر أن يعطينا اياها ، تكاد تثب فى خيال وراء هذا

الشاعر المطارَد وهراوتها بيدها صلبة جريئة ثقيلة فى مشيها يتطاير الحصى تحت أقدامها تقتحم اليه الحواجز ، حتى (اذا لحقت به هوى حيث تهوبه العصا يتطوّح !)

ولا حيلة ولا قرار من هذا العذاب المقيم لأن :

لها مثلُ أظفار العُقاب ومَنسمٌ أزجُّ كظُنبوب النعامةِ أروحُ
اذا انفلتت من حاجزٍ لحقتْ به وجبهتها من شدة الغيظ ترشحُ

وقالت : تبصر بالعصا أصلَ أذنه لقد كنت أعفو عن جرانٍ وأصفحُ
نفرَّ وقيذاً مسلحِبّاً كأنه على الكِسرِ ضِبعانٌ تقعَّرَ أملحُ !

نتركه هنا ممداً فى اغمائه وسط البيت كأنه الضبع الذى سقط فى كمينه، وننتقل الى صورة أطرف وآنق ، لا تتناول الشاعر وحده بل تمتدّ الى أحد أصدقائه ساقه سوء مصيره الى زيارته فى يوم (ذى قار) فناله من النصيب الموفور ما شكر الله عليه وأعقبه بالحمد على نجاته ! جاء يطلب (اللهو) عنده فكاد يخرج بسراويل مبتلة !

ولكنه وُفّق الى انقاذ ما يمكن انقاذه من هذا الصديق المشعث ، فنجا الشاعر من ضجيجها الذى يقرب منه ضجيج الحدادين ونجا هو فوق راحلته وأطلق لها العنان:

أتانا ابنُ رَوْقٍ يبتغى اللهوَ عندنا فكاد ابنُ رَوْقٍ بين ثوبيه يسلحُ
وأنقذنى منها ابنُ رَوقٍ وصوتُها لصوت عَلاة القين صلب صَميدحُ
وولّى به رادُ اليدين عظامُه ـ على دفقٍ منها ـ موائرُ جُنَّحُ

بقيت صورة واحدة ألفت اليها النظر :

ولمّا التقينا غُدوةً طال بيننا سِبابٌ وقذفٌ بالحجارة مِطرحُ
أجَلِّى اليها من بعيدٍ وأتّقى حجارتها حقاً ، ولا أتمزّحُ
تَشُجُّ ظنابيبى اذا ما اتقيتُها بهن ، وأخرى فى الذؤابةِ تنفحُ

أوعيتَ هذه الصورة الناطقة ، وشاهدت قفزات الشاعر اتقاء الاصابة المحققة ؟ ألا ترى تساقط الحجارة المتوالى فوق جسمه ، وكيف تمتدّ يداه ، وتتحرك رجلاه ليتقى بها الرضوض المهاجمة ، وكيف تصيب واحدة منها الرأس المعرض للخطر ؟ ألا تحسّ معى القوة فى قوله (وأخرى فى الذؤابة تنفح) ؟ إننى لأكاد أسمع طنين الحجر فى مسيره الى الرأس المنكود !

وهنا نودّ أن نترك الشاعر لانتهاء الصورة التى أردنا الكتابة عنها ولأنه قال :

خُذا حذراً يا خُلَّتَىَّ فانني رأيت جِران العودِ قد كاد يصلحُ

فنتركه يستعد ؟

عبد الحميد الشرقاوى

عثرات الينبوع

فى عدد فبراير من مجلة (أبولو) نقد لديوان (الينبوع) فى القافية والعروض أخذ فيه حضرة الناقد الأديب على صاحب الديوان بعض ما أخذ عنونها بعثرات الينبوع، وقد وجدنا بذلك النقد بعض عثرات رأينا الرد عليها بما يجلى الصواب والحقيقة للقراء.

ذكر أن فى بعض قصائد (الينبوع) عيباً من عيوب القافية يسمى (سناد الردف)، والردف هو حرف مدّ أو لين يأتى قبيل الروىّ (والروىّ هو الحرف الذى بُنيت عليه القصيدة وتنسب اليه) ويجوز فى القصيدة الواو أو الياء ردفاً من غير قبح، بشرط أن يكونا حرفىْ مدّ ولين بأن يضم ما قبل الواو ويكسر ما قبل الياء، أو حرف لين فقط بأن يفتح ما قبلهما . وسناد الردف هو أن ترد أحد البيتين وتهمل الآخر كقول الشاعر :

إذا كنتَ فى حاجة مرسلا فأرسلْ حكيماً ولا توصهِ
وإنْ بابُ أمرٍ عليك التوَى فشاورْ لبيباً ولا تَعْصهِ

فالردف فى البيت الأول الواو ، والبيت الثانى غير مردوف لحلول العين محل الردف فى مقابله ، لذا قيل إن فى هذا الشعر سناد الردف . وبمراجعة القصائد المشار